

الفكر الوطني والتحرري لدى الأمير عبد القادر: مقاربة وسيو اتصالية

أ.مرزوقي بدر الدين (سوسيولوجي)

بن سماعيل سلطنة الهوارية (مجاهدة)

تمهيد :

لاريب أن العنف العسكري وما يصاحبه من تدمير مبرمج لمختلف مظاهر العمران العتيقة في العديد من المدن الجزائرية ، وانتهاك حرمة الأملاك الشخصية وخاصة الدينية وتدنيسها وضمها إلى باقي الأملاك المغصوبة بشتى الطرق ، وخيانة العهود والمواثيق والقتل على الهوية ، ونهب الثروات الزراعية والمنجمية وغيرها من الإجراءات التعسفية و الاستنزائية يولد ردود أفعال مختلفة ومتفاوتة شدة وضعفا سواء من الناحية السيكلوجية أو السياسية أو العسكرية . فمن الطبيعي بمكان أن تظهر بوادر ردود الفعل في المدن فقد كانت مدينة الجزائر من أول وأكثر المتضررين بصفة مباشرة نتيجة الحملة الفرنسية على سيدي فرج يوم 14 جوان عام 1830 . لقد تمثلت ردود أفعال السكان الأصليين في أشكال من المقاومة لخصها المؤرخون في محورين رئيسيين : المقاومة المدنية أو السياسية في المدن والمقاومة الريفية أو العسكرية في مختلف مناطق البلاد المحتلة . وبلغة سياسية معاصرة يمكن تصنيف رجالات المقاومين (السياسية والعسكرية) إلى ثلاث تيارات مؤثرة :

أولا : التيار العثماني : ويضم الأعيان والوجهاء وكبار التجار والضباط الراغبين في البقاء على إخلاصهم للخلافة العثمانية وتحرير أيلة الجزائر من دنس الفرنسيين والمتشوقين إلى عودة الحكم العثماني الذهبي أو على أقل تقدير ، إنشاء سلطة من جديد تحكم بإسم خليفة المسلمين العثماني ومن أبرز ممثليه هم المفتي الحنفي سيدي محمد بن العنابي والمناضل الوطني حمدان خوجة .

ثانيا : التيار "الفرنسي" : ويضم هو أيضا الأعيان والوجهاء وكبار التجار والسياسيين الذين تقاطعت مصالحهم مع المصالح الفرنسية ، أي يمكن اعتبارهم قناصو فرص أنية أو مستقبلية . ومن أبرز هؤلاء مصطفى بن الحاج عمر في المدن ، "ولكن هؤلاء (الأعيان) لم يكونوا على درجة واحدة فقد كان فيهم البعيد النظر رغم ضعف الإمكانيات ، وفيهم الضعيف الخائر الذي يكفي لاستمالاته وعد كاذب . وكان على هؤلاء الأعيان أن يدخلوا في دوامة البحث عن الذات والتعرف على مواقع الأقدام ، ودراسة نوايا العدو الفرنسي ، والتحسس لمصالح العامة واهتماماتها" (1) .

ثالثا : التيار الوطني : ويضم أولئك الرافضون جملة وتفصيلا للمحتل الغاصب والعاملين على تعبئة الصفوف وشحد الهمم وتوحيدها وتوجيهها بما يخدم المصلحة العليا للوطن و للإسلام والمسلمين ومن أبرز ممثليه في المدن المناضل أحمد بوضربة .

أما في الأرياف فمن أبرز الشخصيات الممثلة للتيار الوطني (القومي الإسلامي) جهادي فإن الحاج عبد القادر أو بالأحرى الأمير عبد القادر يحتل الصدارة . ومن أبرز الشخصيات الممثلة للتيار العثماني فهو أحمد باي ويأتي مصطفى بن سماعيل كأحد أبرز الوجوه المتعاملة مع السلطة الفرنسية خوفا وطمعا . بعد استسلام الباي حسين على غرار آخرين من عثمانيين وعرب وضمّان العدو الفرنسي له سلامة الخروج مع عائلته من وهران ومن ثم من الجزائر إلى حيث يشاء الرحيل ، أصبحت العديد من المدن الجزائرية تعيش فراغا سياسيا وعسكريا ملحوظا نتيجة الأوضاع السياسية المفروضة .

فكر أهل المدن في حل سياسي ديني يتمثل في بيعة حاكم مسلم يعيد إنتاج الأمن والاستقرار . لكن جهودهم في الاستنجاد بالسلطان العثماني (الباب العالي) أو بالسلطان الفاسي لم تكفل بالنجاح . فالأول كان منشغلا بحروبه في البلقان وتداعياتها ، والثاني قبل على استحياء مترددا ثم سرعان ما استقال لخوفه من

انتقام الغزاة الفرنسيون منه ومن أملاكه في المكان وفي الزمان . كما عرف باي تونس نفس المصير وإن اختلفت الأسباب والمسببات .

إن تدخل تونس وفاس لم يحقق الاستقرار والأمن للأهالي والممتلكات في الإقليم الغربي من الجزائر فالطلب كان أكبر من العرض بكثير والتحدي الإداري والسياسي كان أكبر و أعقد . وبرحيل الباي حسين وانسحاب القوات التونسية والمغربية إلى أقاليمها انحصر الجهاد في ولاية وهران بين الفرنسيين والأهالي في ضروب من الفوضى فوتت على المقاومة الجزائرية، خاصة المدنية والسياسية فرص التعبئة والتنظيم والتوحد الجهادي من أجل طرد الكافر المحتل بكل الوسائل المتاحة وإقامة سلطة إدارية سياسية تحل محل الإدارة العثمانية المريضة بل و المنهارة بشكل متسارع . سيختار القدر الحاج عبد القادر بن محي الدين المعروف بعد مراسم البيعة الأولى والثانية بالأمير عبد القادر أو بالأمير عبد القادر الجزائري (في الشرق والغرب) (1808-1883) للاضطلاع بهذا الدور الفقهي السياسي من أجل إرساء معالم دولة جزائرية ترتكز على أسس عربية إسلامية في الحكم والإدارة .

والجدير بالذكر في هذا السياق التاريخي أنه إذا كانت القومية العربية قد ولدتها وعززت من وجودها عملية التتريك (الثقافة الطورانية) ثم عمليات الاحتلال الأوربي فلا غرابة أن تنشأ الحركة الوطنية (الجهاد أو الثورة والإصلاح) في وقت مبكر كرد طبيعي على البغي والعدوان الأوربي عموما والفرنسي في الجزائر على وجه الخصوص . والملفت للانتباه أن بعض العهود المكرسة لاحتلال أقاليم الجزائر جاءت في سياق بروز وتطور الحركة الرومانتيكية الأوربية التي هي مزيج من العواطف الإنسانية والمشاعر القومية والمثل العليا للثقافة والحضارة في قالبها الإنساني الطبيعي الخيالي . لقد طبع هذا التيار القومي الرومانتيكي وبدرجات متفاوتة القومية الفرنسية والقومية الألمانية والقومية الروسية وغيرها من القوميات الداعية إلى الدولة الوطنية (l'état - nation). وفي هذا السياق الأيديولوجي عرفت مصطلحات مثل القومية ، الأمة ، اللغة القومية ، الثقافة والحضارة ، الحرية والسيادة وغيرها من المفاهيم انتشارا واسعا داخل المجال الحيوي الأوربي وخارجه و لكن وفق الخصوصيات السياسية والثقافية لكل قومية . كما عرفت هذه المصطلحات في الوقت ذاته إستخدامات عديدة متعددة تخللتها إسقاطات النزعة المركزية الأوربية جعل بعضها يتضمن ضربا من الخلط والغموض خاصة عندما انتزعت من مجالها الطبيعي الثقافي و فرضت على قوميات أخرى ومنها القوميات العربية والإسلامية الى درجت أن جعلت مقياسا للتصنيف والتحليل والمقارنة اللانثروبولوجية وفق المعيار الغربي.

نحن لا ننكر أن مفاهيم مثل الدولة الوطن أو القومية أو الوطنية هي حديثة الولادة نبعت في بيئتها الأصلية نتيجة طبيعة التحدي الداخلي عموما والخارجي على وجه الخصوص سلبا كان أو إيجابيا على مستوى الوعي الفلسفي والسياسي والأخلاقي الغربي. فكيف تمثل الأمير عبد القادر مثل هذه المفاهيم وكيف اكتسب مظاهر الشرعية والمشروعية على مستوى الذات و الواقع الموضوعي تجاه التحديات الداخلية والخارجية في المكان وفي الزمان؟. الجواب لا يخلو من تعقيد ورغم ذلك سنكتشف - في هذا الإطار الإبستمولوجي - مدى حرص الأمير باعتباره عالما وفقهيا سنيا طريقا ملتزما بالكتاب والسنة والسلف الصالح ، وشاعرا وأديبا باللسان العربي الفصيح، و"سياسيا" ، ومجاهدا على تنمية استقلالية أفكاره وسلوكه وهذا من منطلق أن الدين والثقافة الوطنية في إطار تجربته المثالية الواقعية إن صح هذا التعبير هي وبامتياز نظرية في السلوك أكثر من كونها نظرية في المعرفة. لقد لخصتها مقامات الصوفية صراحة أو ضمنا وفي أكثر من خطاب ومؤلف في مفهوم التقوى (الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والقناعة بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل) بلا إفراط ولا تفريط (2). ويمكن تلخيص أبرز مصادر شرعية الأمير الوطنية والتحررية في المقومات الرئيسية التالية:

أولاً : الدين الإسلامي : ومصدره الوحي الإلهي الذي ينقسم على مستوى التشريع إلى عبادات ومعاملات بالإضافة إلى جهود علماء الشريعة في استنباط الأحكام الشرعية من مصادرها الأساسية وهي الكتاب (القرآن الكريم) ، السنة النبوية ، الإجماع والقياس (3) ، فالحاج عبد القادر بن محي الدين قد حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة ، وتعلم النحو والصرف والبلاغة و الفلسفة اليونانية و الإسلامية والمنطق الأرسطي ، وعلوم القرآن والحديث والفقه وأصوله وسيرة المصطفى والصحابة والتابعين خاصة بعض أعلام التصوف كالقطب بن عربي وأبي حامد الغزالي والقطب عبد القادر الجيلالي مؤسس الطريقة القادرية . كما تدرّب على ركوب الخيل لميل شديد في نفسه حتى أتقن الفروسية واستخدام السيوف والبنادق امتثالاً لقوله تعالى : {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم } ، ولقوله صلى الله عليه وسلم : " علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل " . كما تعلم الحساب والجغرافيا والتاريخ على يد الشيخ أحمد بن طاهر القاضي الموسوعي في ولاية وهران كلها . وعند بلوغه سن الرابعة عشر من العمر واصل مشواره الدراسي في مدرسة كان يشرف عليها العلامة أحمد بن خوجة . ثم أفل راجعا بعد سنة واحدة من وهران قاصدا مسقط رأسه (القطنة) مواصلا شغفه بالعلم والمعرفة إيمانا منه بأن أول العلم معرفة الله تعالى . بعيد عودته تزوج ببلا خيرة ابنة عمه سيدي على أبي طالب ، وقد عرف عن عبد القادر بن محي الدين بالموهب العديدة اعترف له بها العام والخاص الأمر الذي جعل والده يفضلّه على غيره من أبنائه ، فهو قد تميز عن معظم الشباب بالشجاعة والفروسية والإقدام ، يذكر الله كثيرا ويقرأ كتابه ويفسره ويحفظ أشعار وآثار الأقدمين (4) .

ثانياً : الزاوية القادرية : تعتبر من أبرز المكونات الثقافية والروحية ذات البعد العربي الإسلامي لها امتدادات ولا زالت في بلاد المشرق والمغرب كاليمن وسوريا ومصر وإفريقيا الوسطى والسودان والهند وتركيا والجزائر وتونس والمغرب وهذا على غرار العديد من الزوايا ذات الطرق الصوفية .

يقع مقر عائلة الحاج محي الدين في قرية على الضفة اليسرى لوادي الحمام على مسافة عشرين كيلومتر غربي مدينة معسكر ، والقرية (قطنة وادي الحمام) كما يصفها المؤرخون والرحالة عبارة عن عدد صغير من المنازل وتشتمل على زاوية كانت مقصدا للعلماء والمرابطين وابن السبيل والأعيان والوجهاء من داخل الإقليم وخارجه . كانت عائلة محي الدين تعيش من الأرض ومن العوائد والهبات المقدمة من قبل الأتباع والزوار والمريدين . فهي تكون عادة في شكل نقود وبعض المواد الأولية كالصوف والقمح والشعير والوبر .. الخ . كان الحاج محي الدين رب العائلة مقترنا بأربع نساء شريفات وهن : وريدة وله منها ابنان هما محمد السعيد ومصطفى . والزهراء وله منها عبد القادر وخديجة ، وفاطمة وله منها الحسين وأخيرا خيرة وله منها المرتضى . وكان من شيم هذه العائلة الشريفة النسب والكرامة المنبت والعلم والتقوى والقضاء حسن الضيافة والكرم والإحسان (5) ومن أبرز أدوارها الروحية والاجتماعية والثقافية :

- أ- تعليم المبادئ الدينية والعلوم اللغوية وتلقين الأوراد والأذكار وحفظ القرآن الكريم وترتيبه .
- ب- مساعدة الفقراء والعجزة واليتامى والمساكين وابن السبيل وغرس روح الأخوة والتآلف وتعزيز روح الانتماء إلى الجماعة المرجعية .
- ج- فض بصفة مباشرة أو غير مباشرة النزاعات بين الأفراد والجماعات من داخل الإقليم وخارجه وإصلاح ذات البين . فكانت بهذا الزاوية القادرية قبلة الزوار الفضوليين والمنتازعين على اختلاف مستوياتهم الاجتماعية نظرا لدورها الحيوي الاجتماعي الثقافي في ظاهره والسياسي في باطنه (6) . في الواقع ، لقد ظلت علاقات محي الدين بالإدارة التركية طبيعية رسمية إلا أنها عرفت بعض الاضطرابات على خلفية حادثة هجوم التيجيني وأتباعه قادمين من عين ماضي قاصدين غزو معسكر والتي انتهت بالفشل ومقتل المعتدي فرأى محي الدين من الحكمة بمكان نتيجة "اتهام" أبا طالب من قبل الأتراك له

بالتواطئ الابتعاد عن معسكر لفترة قصيرة حتى تنجلي الأمور . لكن شاءت الأقدار أن يسجن محي الدين وابنه عبد القادر وهما منطلقين من وهران بنية الحج إلى البقاع المقدسة . وفي أواخر 1826 أطلق سراحها نتيجة حسن سمعة عائلة محي الدين وارتباطاتها القوية برؤساء معظم القبائل الموالية للإدارة التركية آنذاك .

تمكن الحاج محي الدين من شد الرحال إلى البقاع المقدسة من جديد رفقة ابنه الموهوب عبد القادر . مر المسافران بتونس وتجولا في بعض ربوعها ثم استأنفا السير عن طريق طرابلس إلى الإسكندرية ثم إلى القاهرة الأمر الذي ساهم في نضج الشاب اليافع عبد القادر كما وكيفا، خاصة بعد وقوفه على مظاهر الحضارة العمراني والتنظيم المدني والعسكري الذي حققه محمد علي باشا نتيجة إصلاحاته السياسية والإدارية والعلمية والعسكرية على النمط الغربي . ومن القاهرة قصدا مكة المكرمة في رحلة استغرقت أربعين يوما . وبعد تأدية مناسك الحج ، زار محي الدين وابنه عبد القادر ضريح الشيخ الأكبر عبد القادر الجيلاني العالم والفقير الزاهد مؤسس الطريقة القادرية . كما زارا العديد من المدن العراقية وما تزخر به من تراث ثقافي وحضاري . ومن بلد الرافدين ، عادا في العام التالي إلى الأماكن المقدسة للقيام بحجة أخرى ثم رجعا بحرا إلى مسقط رأسهما وقد كان في انتظارهما شخصيات دينية من فقهاء وقضاة ، وزعماء ووجهاء وأعيان من مختلف الأقاليم الجزائرية والله ذر القائل (7) .

ما في المقام لذي عقل وذي أدب *** من راحة فدح الأوطان واغترب
سافر تجد عوضا عن تفارقـه *** وانصب فإن لذيق العيش في النصب
وإني رأيت وقوف الماء يفسده *** إن ساح طاب وإن لم يجر لم يطب
والأسد لولا فراق الأرض ما فترست *** والسهم لولا فراق القوس لم يصب
والشمس لو وقفت في الفلك دائمة *** لملها الناس من عجم ومن عرب
والبدر لولا أفول منه ما نظرت *** إليه في كل حين عين مرتقب
والتبر كالترب ملقى في أماكنه *** والعود في أرضه نوع من الحطب
فإن تغرب هذا عز مطلبـه *** وإن تغرب ذاك عز كالذهب

زادت شهرة ونفوذ الزاوية القادرية الممثلة في شيخها الجليل العارف بالله محي الدين إلى درجة أن الكلوغليين والحضر في تلمسان لم يجدوا بدا من اللجوء إليه لفض خصوماتهم ونزاعاتهم المادية والأدبية حيث أثبت لهم بحكمته أنه قادر على تسوية الخلافات وإدارة الأزمات وقد نجح في إبطال العديد من مقدمات الفتن والافتتال بين زعماء هذه العائلات في المكان وفي الزمان .

ثالثا: البيعة والشورى الإسلامية : كلمة البيعة مشترك لفظي ورد في التراث العربي والإسلامي بمعان عدة . منها أنها تأتي بدلالة (الصفقة على إيجاب البيع) (8) . وبمعنى (المبايعة والطاعة، وقد تبايعوا على الأمر) (9) . وبدلالة العهد (كقولك: أصفقوا عليه، وبايعه عليه مبايعة: عاهد) (10) . وقد سميت بذلك تشبيها بالمعاوضة المالية (11) . وفي لسان العرب (العهد : الوصية ، والعهد : التقدم إلى المرء بشيء ، والعهد الذي يكتب للولاية ، والعهد الموثق واليمين يحلف بها الرجل ، والعهد : الوفاء ، والعهد : الأمان) (12)

أما في الشرع فقد وردت كلمة البيعة في الكتاب والسنة في موارد عديدة متعددة لخصها العلامة الفلقشندي في صبح الأعشى في جزئه التاسع في معنى العهد فقال : " العهد لفظ مشترك ، يقع في اللغة على ستة معان ، أحدهما : الأمان ومنه قوله تعالى: ((فأتوموا إليهم عهدهم إلى مدتهم)) ، الثاني : اليمين ، ومنه قوله تعالى: ((وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم)) ، الثالث : الحفاظ ومنه قول المصطفى: (حسن العهد من الإيمان) ، الرابع : الذمة ومن قوله (ص) (لا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد بعهد) ، الخامس : الزمان

ومنه قولهم: (كان ذلك في عهد فلان) والسادس والأخير : الوصية لقوله تعالى : ((ولقد عهدنا لأدم من قبل فنسي)) (13).

وأما الشورى في اللغة والاصطلاح فيتضح من مجمل معاني "الشورى" في اللغة أنها : طلب الشيء ، لذا قال عنها بعض العلماء أنها (الاجتماع على الأمر ، ليستشير كل واحد صاحبه ، ويستخرج ما عنده) (14). وقال بعضهم : (عرض الأمر على الخبرة حتى يعلم المراد منه) (15). وفي الشرع انحصرت أدلة مشروعية الشورى بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة . وقد حدد الشرع كليات ممارسة هذه الطريقة الإسلامية في الانتخاب والتعيين وحل المشاكل . فالشورى ركن أساسي ومجلس الشورى وسيط شرعي بين أجهزة الحكم في الدولة والرعية باعتبارها (الشورى) حق لكل مسلم رجلا كان أو امرأة توفر فيه العقل والبلوغ . فالأمة- حسب الفقهاء - والحاج عبد القادر واحدا منهم يعلم أن جماعة المسلمين وممثلهم هي صاحبة السلطان والشأن في التولية والعزل ونصب الخليفة واجب لا يتم شرعا إلا من خلال البيعة . وكل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب كما يقول الأصوليون . ومن ثم الوفاء بالبيعة واجب شرعا . فالآيات حول مشروعية البيعة و الشورى مستفيضة في الكتاب والسنة منها قوله تعالى ((إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم)) (16) .

وقوله تعالى : ((لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا)) (17) .

وقوله تعالى : ((إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ،يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد الله فسيؤتيه أجرا عظيما)) (18) .

وجاء في الحديث الصحيح ما رواه البخاري عن عبادة بن الصامت (ض) ونصه عن جناده ابن أبي أمية قال : " دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض ، فقلنا حدثنا أصلحك الله بحديث سمعته من رسول الله (ص) فقال : " دعانا رسول الله (ص) فبايعناه فكان فيما أخذ علينا أن بايعناه على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثره علينا وأن لا ننازع الأمر أهله قال : "إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم فيه من الله برهان " (19) .

في البداية عقد عدد من العلماء والأشراف ورؤساء القبائل ذي الحل والعقد عزمهم على اختيار أمير يجمع بين العلم والتقوى والعدل بين الرعية، يوحد الصفوف ويحمي الطرقات والمسالك التجارية ويحفظ الأمن والاستقرار ويعلم مواصلة الجهاد ضد الكفار.

بعد المشورة (20) أجمعوا على الحاج محي الدين إلا أنه رفض الإمارة مع قبوله مواصلة التعبئة الجهادية . وناهيك فقد اشترك الحاج عبد القادر مع أبيه في هجوم المجاهدين بقيادة والده على عدة دوريات ونقاط استطلاعية فرنسية في وهران وضواحيها وكان ذلك بمشاركة عشرات القبائل الموالية للقائد محي الدين . تمثلت وظيفتها التكتيكية في محاصرة وهران اقتصاديا وعدم السماح بكل الوسائل المتاحة وصول المؤن والإمدادات إلى الحامية الفرنسية المتقدمة . لكن بعض القبائل (الزمالة والدوائر) أخلفت الوعد بأن استأنفت المعاملات التجارية مع العدو الكافر . وكذا فعل الشيخ أحمد بن طاهر قاضي أرزيو الشهير ومعلم عبد القادر حفاظا على منصبه وامتيازاته حيث مدهم بالمواد الغذائية عبر البحر وقد فسرها بعض المؤرخين بالخوف من انتقام العدو إن أجلا أم عاجلا في حين فسرها البعض الآخر بالطمع في بقائه في منصبه الإداري والسياسي (والله أعلم) . لقد كان الهدف الأساسي من حرب العصابات هو إحياء سنة الجهاد وتدريب المجاهدين على أساليب الكر والفر مع الكفار هذا مع العلم أن هذه الهجومات الخاطفة لم تؤثر

كثيرا على الحاميات الفرنسية لشدت تحصنات بعضها العمرانية والعسكرية بالإضافة إلى المناخ الأمني العام المتدهور باستمرار . كما يذهب المؤرخون إلى أن العلماء والأشراف وزعماء معظم القبائل أصروا على اختيار الحاج محي الدين ومبايعته أميرا على المسلمين . لكن هذا الأخير بعد تأمل وتفكير واستشارة المولى عز وجل فضل نظرا لتقدمه في السن تقديم ولده الموهوب للإمارة ومدافعة أهل الكفر والفسوق والعصيان متوكلا في ذلك على نصر الله وتأييده. لم يتردد أهل "الشورى" في اختيار الحاج عبد القادر ابن محي الدين ومبايعته لما لمسوا وخبروا فيه من علم وتقوى وقوة في الشخصية وذكاء حاد في السلم والحرب ، ولما تمت البيعة له وفق التقاليد الإسلامية في يوم 27 نوفمبر عام 1832 وعبد القادر لم يتجاوز بعد الخامسة والعشرين كلف الأمير الشاب الموهوب مجلس العلماء بأن يرأسوا رؤساء القبائل في باقي ربوع الجزائر بأمر البيعة ودعوتهم لأداء هذه البيعة . ثم انعقد مجلس عام اشتركت فيه القبائل المختلفة وأشرفها وعلمائها حيث جرت مراسيم البيعة الثانية في قصر الإمارة وحررت وثيقة أخرى لهذه البيعة قرأت على العام والخاص من الحاضرين تولى تحريرها العلامة محمود بن حمو المجاهري جاء فيها بعد الديباجة ما يترجم الأصالة والنخوة الإسلامية العريقة : " ... لما انقضت الحكومة الجزائرية من سائر المغرب الأوسط استولى العدو على مدينة الجزائر ومدينة وهران ، وطمحت نفسه العاتية إلى الاستيلاء على السهول والجبال ، والضفاف والتلال ، وصار الناس في هرج ومرج وحيص ببيص ... قام من وفقهم الله الهداية من رؤساء القبائل وكبارها وصناديدها وزعمائها ، فتفاوضوا في نصب إمام يبايعونه على الكتاب والسنة فلم يجدوا لذلك المنصب الجليل إلا ذا النسب الطاهر والكمال الباهر ابن مولانا السيد محي الدين ، فبايعوه على كتاب الله العظيم وسنة نبيه الكريم " . وقد تم التوقيع على هذه الوثيقة في 13 رمضان عام 1238 هـ الموافق لـ 25 فبراير عام 1833 وعمر الأمير عبد القادر لم يتعدى بعد السادسة والعشرين.

مجلس الشورى وصلحياته في عهد الأمير : شرع الأمير بعد البيعة له في تنظيم حكومة الدولة الجديدة عاصمتها سهل غريس (معسكر) . وبعد المشورة والاستشارة عين مجلسا للشورى أسوة بالمصطفى (ص) حيث لما قامت الدولة الإسلامية في المدينة المنورة بعد الهجرة ، شرع المصطفى (ص) في تشكيل أول مجلس شورى في الدولة من المهاجرين والأنصار فاختر سبعه من الأنصار وسبعة من المهاجرين كل واحد منهم نقيب قومه وجماعته يمارس عضوية مجلس الشورى في عهده (ص) . وهذا العمل يعد في الفقه السياسي دليل مشروعية وجود مجلس الشورى في الإسلام فالعبرة ليس بالعدد بل بمدى التمثيل الجماعي والشرعية الفقهية ، وهذا ما كان يصوبوا إليه الأمير عبد القادر الجزائري من هذا المجلس الشوري الموقر بعد المشورة والاستشارة عين الوزراء والكتاب والحجاب ونظراء الخزينة والعلاقات الخارجية . كما شكل مجلسا للشورى يضم أحد عشر عالما وفقهيا يرأسهم العلامة القاضي الشهير أحمد بن الهاشمي المراهي . ثم بث قضاة وعمالا في مختلف أطراف دولته وضرب عملة وطنية. شملت دولة الأمير عبد القادر ثمانية أقاليم على رأس كل إقليم خليفة ينوب عن الأمير في شؤون الإدارة والتنظيم والقضاء والجهاد . كانت في البداية أربعة أقاليم (1832-1837) هي إقليم الغرب أو تلمسان ، إقليم المشرق أو معسكر ، إقليم مليانة (شرشال وتنس) ، إقليم المدية أو التيطري سابقا ، بعد معاهدة التافنة توسع نفوذ الأمير فدخلت تحت إمارته كلا من إقليم حمزة (كان في السابق تحت نفوذ الحاج السعدي كمثل للأمير) ، إقليم مجانة (إثباتا لشرعية نفوذه على إقليم قسنطينة القديم) ، إقليم الأغواط وأخيرا إقليم الزيبان (بسكرة) . كان كل إقليم مقسما إلى عدة نواحي يدير شؤونها آغا وكل ناحية مقسمة إلى أعراش أو قبائل يدير شؤونها قائد ، وكل فرقة من القبيلة تحت سلطة شيخ .

منح الأمير سلطات واسعة لخلفائه في الأقاليم الخاضعة تحت إمارته تمثلت في جمع الضرائب (ضريبة المعونة والزكاة والعشور) ، إقامة الحدود ، القضاء بين الناس ، حماية الممتلكات وأعراض المسلمين ومجاهدة الكفار والمنافقين ، ومدة تعيين هؤلاء الخلفاء غير محددة زمنيا في حين أوكلت مهمة تعيين الأغوات والقياد إلى الخلفاء ومدتها لا تتجاوز السنة الواحدة قابلة للتجديد حسب الظروف ، وقد جرت العادة أن يعين القياد من قبل الأغوات إلا أنه في حالة وجود قياد من قبائل كبيرة فإن تعيينهم يكون مباشرة (نظام التعيين) من طرف الخليفة نفسه . وأما الشيوخ فتعيينهم انتخابي من قبل دوارهم بعيدا عن تدخل الأمير والخليفة ، تنحصر مهمتهم في جمع الشكاوي والمطالب من السكان وتحويلها بطريق السلم التصاعدي إلى السلطات العليا وعادة ما يتحول هؤلاء الشيوخ إلى قياد عسكريين كل في دائرته خاصة عند الهجوم أو صد العدو . (21)

لقد كان القاضي في عهد الأمير يتمتع بسلطات واسعة (في استقلالية القضاء) وذلك باحتكامه للشريعة الإسلامية . فالأمير لم يطبق ما ندعوه اليوم في قاموسنا الحديث بالديمقراطية ، ذلك أن السيادة في الإسلام هي للشرع أولا وفي النظام الديمقراطي للشعب أولا وأخيرا . كما أن الإسلام كما فهمه الأمير وغيره من العلماء والفقهاء في بلاد العرب والمسلمين لم تفد نصوصه أن السيادة للشعب ، بل نصت جميع نصوصه صراحة وضمنا على أن السيادة للشرع لا للشعب ، وأن التشريع إنما هو الذي يستمد قوته من الوحي لا من التشريعات الوضعية وأن مصدر التشريع الإسلامي عند الاختلاف والنزاع هو القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة والإجماع (إجماع السلف الصالح) والقياس (الاجتهاد فيما لا نص فيه) . لقد تضافرت النصوص القطعية الثبوت والقطعية الدلالة على نفي إيمان كل من يحتكم إلى غير الله ورسوله (ص) . لقوله تعالى : ((وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيئنا عليه فأحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم بما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا)) (22)

هذا ما كانت تخشاه السلطات الفرنسية على وجودها الصليبي الإحتلالي و إستمراريته في الجزائر إن أجلا أم عاجلا خاصة من ناحية الإدارة والقضاء والإستيطان.

من أبرز خلفاء الأمير في المرحلة الأولى (1832-1837) حسب شهادة المؤرخين مصطفى بن التهامي خليفة معسكر ، محمد البوحميدي الولهاسي خليفة تلمسان ، محمد بن علال خليفة مليانة ، محمد بن عيسى البركاني خليفة المدية (23) . وعلى الرغم من تفاوت بعضهم من الناحية العلمية والكفاءة الإدارية والتنظيمية والاجتهادية فانحدارهم من عائلات معروفة بالعلم والتدين والثروة جعلهم في غالبية الأحيان لا يخرجون عن تعليمات الأمير ومجلس شورا .

ويلخص بعض مؤرخين هذه الفترة من تاريخ دولة الأمير شخصية هؤلاء الخلفاء في شيء من التوضيح بقوله : " والملاحظ أن هؤلاء الأربعة كانوا من عائلات دينية وتميزة بالثروة . كما كانوا من المتقنين . وكان بعضهم يجتهد رأيه حتى أن ابن علال رفض تسليم مدينتي البليدة والقلية إلى الفرنسيين طبقا لمعاهدة التافنة ، ولكن هؤلاء احتلوها بالقوة منذ سنة 1838 . وكان البوحميدي متميزا بالاستقلال في الأحكام حتى أنه أحيانا لا يرسل الأمير إلا بعد مرور وقت ، أما ابن التهامي الذي هو صهر الأمير وقريبه فقد تميز بالعلم والأدب والحكمة أكثر من القدرة على الإدارة ، رغم أنه كان محاربا شجاعا ، ورغم بعد موقع البركاني فقد كان معروفا عنه الولاء للأمير والقدرة الإدارية والشجاعة في الحرب والتدين . "

أما خلفاء الأمير في الأقاليم الأربعة الجديدة فهم أيضا يتفاوتون من حيث الإدارة والنفوذ والتدين ... "فهذا محمد بن عبد السلام المقراني خليفة مجانية ، منذ أكتوبر 1837 ، كان من أقوى الخلفاء ومن أكبر العائلات في الإقليم ، ولكن بعد المسافة ومضايقة الفرنسيين له من بجاية وقسنطينة والمناورات

العائلية جعلت سلطة الأمير هناك غير قوية ، وكان خلفاؤه على الأغواط وبسكرة وحمزة ليسوا في مستوى خلفائه السابقين ... فمثلا كان إقليم بسكرة في غمرة الأحداث والصراعات العائلية فلم ينجح الأمير هناك في فرض إدارة محترمة وهذا باستثناء الخليفة أحمد الطيب بن سالم (حمزة) الذي كان أقواهم وأتقاهم إدارة وتنظيما وصمودا أمام الكفار والمنافقين " (24).

رابعا : من اجتهادات الأمير في سياسة الرعية وشؤون الجهاد : كان الأمير شخصية مثالية واقعية لا يكتفي بالتقارير الإدارية والتنظيمية لخلفائه بل كان يخرج كلما دعت الضرورة وسنحت الظروف الأمنية متفقدًا سير الأعمال فاضا للنزاعات المادية والأدبية أخذًا البيعة من القبائل المتوافدة . كما كان يجمع الناس لسماع رأيهم في الأوضاع الآنية والمستقبلية خاصة تلك المنوطة بالجهاد أو الهدنة أو المصالحة والسلم الاجتماعي والاقتصاد والمعاش . ويذكر المؤرخون أنه سن الضرائب (المعونة) بعد استفتاء العلماء من داخل الجزائر وخارجها . وقد اختلفوا حول تسوية الضرائب على الرعية . فذهب بعضهم إلى أن الأمير أبطل التفاوت القائم بين قبائل المخزن والرعية آنذاك بتبنيه مبدأ التسوية وتطبيقه . في حين ذهب البعض الآخر إلى القول بأن الأمير أبقى بعض الامتيازات خاصة عند القبائل المخزنية (دفع أقل مقارنة بالآخرين) شريطة مشاركة أفرادها بعدد وبدور أكثر وأكبر . كما منح بعض القبائل امتيازات خاصة مثل قبيلتا هاشم والغرابة نظرا لانحدار معظم موظفيه منهما وما يقدموه من دعم مادي ومعنوي لفرض الطاعة له على القبائل الأخرى . لكن مؤرخين آخرين يعللوا هذا الإجراء (التمايز في منح الامتيازات) كان في فترة بناء الدولة الجديدة (1832-1837) الهدف منه الحفاظ على المكتسبات الدولة الفتية وتقوية مركزيتها السياسية الداخلية والخارجية باسترضاء بعض الأطراف المتقلبة الأهواء ومن أبرزها قبائل الزمالة والدوائر المخزنية . ثم سوى الأمير بعد تقويته للدولة واتساع نفوذها بين القبائل أمام القضاء .

بعد معاهدة تافنة يذكر المؤرخون أنه دخل في اشتباكات عدة مع بعض القبائل المتمردة عن دفع الضرائب أو الطاعة حين وجد في بعضها الخيانة العظمى من بعض زعمائها وعلمائها وفي مقدمة هذه القبائل الزمالة والدوائر بقيادة مصطفى بن سماعيل وابن أخيه المزاري . فقد كانت تشكل العمود الفقري للإدارة التركية سواء في عهد ازدهارها أو في عهد انحطاطها. إن هذه "القابلية للإستعمار" لم يستوعبها الغزاة الفرنسيون جيدا في بداية الاحتلال بدليل أن معاهدة "دي ميشال" قضت بتسليمهم إلى مفاوضي الأمير بعدما فرض الأمير الأمر الواقع على المحتل . كما انتهج الأمير في المرحلة الأولى من تأسيس دولته سياسة المدارات (مبدأ التقية) مع حكام وسلطين الجوار وعلى رأسهم المولاي عبد الرحمان بن هشام سلطان فاس. كان الأمير يلبس مثلا القفطان المهدي من طرفه في المناسبات الدينية ، يذكر اسمه ويمدحه في خطبة الجمعة (مع إسقاط اسم السلطان المغربي من العملة الجديدة). كل ذلك كان مقابل الخدمات المادية والأدبية المقدمة من قبل سلطان فاس في الوقت الذي كان يبين الأمير عبد القادر الجزائري للجميع أنه يحمل لقب أمير المؤمنين وسلطان على الأقاليم الجزائرية وحامل لواء الجهاد فيها . (25)

لم يتوقف الأمير لحظة عن تعزيز وتطوير أنظمة دولته الدفاعية والهجومية حيث جلب مدربين غربيين في فن الإدارة والتنظيم الحربي كما اشترى الأسلحة ثم بعد اكتساب الخبرة بنى ورشات حربية تنتج الأسلحة والذخيرة في الوقت الذي أقام جيشا نظاميا بلباس خاص وتراتبية عسكرية ومعاش ونظام ترقية وهذا بهدف حماية حدود مملكته المركزية وأقاليمها في مختلف ربوع الجزائر وجباية الضرائب والمعونات ، وجهاد العدو الكافر. (26)

لم يتوانى الأمير في تطبيق الإجراءات العسكرية (العقوبات المادية والمعنوية) على بعض الخلفاء نتيجة تبين سوء إدارتهم أو عجزهم أو "تعاملهم " مع العدو الفرنسي مع بعض القبائل المناوئة لحكم الأمير . وفي هذا يذكر المؤرخون أنه قام بعزل خليفته محمد بن عبد السلام المقراني وتعيينه بأحمد بن عمار بعد شكه في تقرب الأول من العدو ، وأقال الخليفة فرحات بن سعيد من منصبه وعين الحسين بن عزوز في منصبه لنفس السبب ، وعزل الحاج السعدي واستبدله بأحمد الطيب بن سالم إلى درجة أنه عزل أخاه مصطفى عن المدينة وعين بدله البركاني لنقص ملحوظ في خبرته الإدارية لاحقا . كما عين خلفا لعمه الحاج محي الدين محمد بن علال إثر وفاته .⁽²⁷⁾ لقد كان الخلفاء هم المسؤولون أمام الأمير على جميع المسائل التي تتعلق بالمحافظة على الأمن العام والتجنيد وجمع الزكاة وتحصيل الضرائب في ولايته . فكانوا يخرجون رفقة جيش الولاية النظامي من المشاة والخيالة لجمع الزكاة وجباية الضرائب مرتين في السنة : المرة الأولى في الربيع لتحصيل الزكاة ، والمرة الثانية في أواخر الصيف ، أي بعد إنتهاء موسم الحصاد والتوزيع لجمع العشور . كما كانت وظيفتهم تكمن في النظر في المسائل القضائية الكبرى والسماع إلى شكاوي الرعية والفصل بين المتخاصمين والتفتيش عن ممتلكات الدولة (البايك) علما بأن الأمير كان قد أعطى تعليمات صارمة في معاقبة من يتردد أو يرفض دفع الزكاة والضرائب والغرامات (دفع المستحقات) إلى بيت المال في الوقت الذي كان يأمرهم بالتساهل في وسائل الدفع (استخدام الزكاة والمرونة بدل الخشونة والتصلب في الموقف) ورغم كل هذه المداخل كان الأمير مثالا للنزاهة والتشفير والزهد في الملبس والمأكل والمشرب ، يلبس الصوف المنسوج من قبل نسائه ويأكل مما تنتجه أملاكه الخاصة (أملاك الزاوية القادرية الخاصة) ومن ثم فهو مستغني نفسيا وروحيا عن الحرص والطمع الدنيوي وهذا ما جعل بعض خلفائه متفانين في حبه متخذينه قدوة في حياتهم الرسمية والشخصية والله في خلقه شؤون .

ويكاد يجمع مؤرخي هذه الفترة من حياة دولة الأمير أن مختلف هذه التحديات الجغرافية السياسية والتنظيمية كانت إيجابية من زاوية الإدارة والتنظيم المؤسساتي فهي :

أولا : قد أتاحت فرصة للأمير بأن يبرهن على مقدرته السياسية والعسكرية في فرض الطاعة باستخدام القدر الشرعي من القوة والحلم وسعة الصدر عند اقتضاء الضرورة وللضرورة أحكامها – كما يقول الأصوليون- .

ثانيا : تكرر تمرد بعض القبائل على الأمير عزز من معتقدات الفرنسيين المسبقة (الأنثروبولوجيا الكولونيالية) حول العرب عموما والبدو على وجه الخصوص بأنهم قوم سريعوا الانقلاب على أمرائهم ، متقلبوا المزاج ، متعصبون ومتوحشون ينفرون من النظام والخضوع للسلطان إلا سلطان القبيلة فالعصبية القبلية مستحكمة فيهم. مثل هذه الأفكار جعلت المحتل يشك في قدرة الأمير على توحيد صفوف مختلف القبائل وتنظيمها وضبطها إداريا وعسكريا . لكن الأمير كان يعلم علم اليقين أن العرب "مجبولون " على الانقياد لعصبية دينية من نبوة أو إمامة كما بين ذلك المؤرخ بن خلدون في مقدمته الشهيرة . فمثل هذه العصبية الدينية وجدت استعدادا فطريا ومصليا في النفوس والعقول رغم كفر البعض ونفاق البعض الآخر في وقت من الأوقات نتيجة حب الدنيا وكراهية الموت .

إتبع الأمير في بداية مقاومته الحرب النظامية ضد المنافقين والكفار الذين تمركزت حماياتهم في المدن وضواحيها فتمكن من تحريرها فأجبر السلطات الفرنسية على الاعتراف به ولو مؤقتا في معاهدتين شهيرتين : الأولى عندما إعترفت له بحق تعيين ممثلين عنه لدى هذه السلطات وهذا من خلال معاهدة عبد القادر دي ميشال في 4 أفريل 1834 جاء فيها من طرف مفاوضيه عن الماريشال "دي ميشال" باللغة العربية مايفيد :

- 1- وقف القتال بين الطرفين إبتداءا من ذلك التاريخ.
 - 2- احترام الديانة الإسلامية والعادات المحلية.
 - 3- تكوين الأسواق الحرة.
 - 4- يلتزم الطرف الغربي بإعادة الهاربين الفرنسيين.
 - 5- يحمل كل مسيحي يتجول في داخل البلاد جواز سفر مختوم من قنصل الأمير ومن الجنرال قائد القوات الفرنسية .
- وبعد الإطلاع عليها ومشاورة أهل الحل والعقد حرر مذكرة تضم الشروط السياسية الاقتصادية التالية :

- 1- يكون للعرب الحرية بأن يبيعوا ويشترؤا كل ما يتعلق بالحرب.
 - 2- تكون المتاجرة في مرسى أرزيو تحت ولاية (مراقبة) الأمير كما كان قبلا بحيث لا يصير شحن أي شيء إلا منه . وأما وهران ، و مستغانم فلا يرسل لها إلا البضائع اللازمة لأهلها .
 - 3- يلتزم الجنرال باعادة من يهرب إليه من العرب ، وألا تكون له سلطة على المسلمين الذين يحضرون عنده برضا رؤسائهم .
 - 4- لا يمنع مسلم عن الرجوع إلى بيته متى أراد .
- ثم أدمجت الوثيقتان الأولى بالفرنسية والثانية بالعربية الفصحى في وثيقة واحدة ، أطلق عليها المؤرخون إسم معاهدة دي ميشال (le traité DE MICHEL) على الرغم من مصادقة الطرفين كل منهما صاحب سيادة وسلطان :السلطان الأمير عبد القادر (الجزائري) ولويس فليب (Louis philippe) ملك فرنسا .وقد تمكن "دي ميشال "بصدق عزمته من الإيفاء بعهود فرنسا ماضيا في تطبيق بنود المعاهدة مع مراعاته إرساء علاقات طيبة توحى للأمير بالاعتراف وحسن الجوار .كانت هذه المعاهدة بمثابة صك اعتراف بسيادة الأمير ونفوذه وإذلال للإمبراطورية الفرنسية خارج ديارها . في الواقع لم ينج "دي ميشال" من انتقادات المدنيين الفرنسيين في وهران وحتى من قبل السلطات الفرنسية العسكرية في مدينة الجزائر . والله ذر القائل :

يداوي هواه ثم يكتم وجده ويصبر في كل الأمور ويخضع (28)

ومن أبرز الانتصارات التي حققها الأمير في حربه النظامية كانت في معركة المقطع قرب مدينة أرزيو بتاريخ 28 جوان 1835 على حساب كتبية فرنسية قوامها 2500 جندي كانت تفوقهم عدة وتنظيما . وبعد إستفحال خيانة بعض القبائل وإنشغال الأمير بالشؤون الداخلية السياسية الاجتماعية والاقتصادية تمكنت القوات الفرنسية من تخريب عاصمة الأمير واحتلال مدينة تلمسان . وكرد فعل شرع الأمير يغير في أسلوب مقاومته فكثف من "حرب العصابات " مكنته بعون الله من تحقيق انتصارات عديدة كانت أبرزها معركة التافنة في رشقون يوم 25 أبريل عام 1836 . لقد سجلت معاهدة تافنة مع الجنرال بيجو بتاريخ 30 ماي 1837 ، أي بعد عام من الهزيمة انتصار "الدبلوماسية " الجزائرية . كيف لا وقد اعترفت السلطات الفرنسية باستقلال إدارة الأمير وتبادل الممثلين بين الطرفين ومن تم اغتتم الأمير هذا الانقلاب في موازين القوى فواصل من توطيد نفوذه ودولته في العديد من مناطق الوسط مثل مليانة ، المدينة ، واد سبدو . والملفت للانتباه أن المؤرخين الفرنسيين وفي مقدمتهم "جورج بيوفر " الذي قام بنشر مجموعة الوثائق الرسمية المنوطة بمعاهدة تافنا يعتبرون النص العربي مفقودا في أرشيفات الإمبراطورية الفرنسية . وقد عرفت هذه المعاهدة جدلا واسعا بين المؤرخين الفرنسيين أنفسهم بين مدافع عن أصالتها وآخر طاعن في نصها الفرنسي . (29)

وهكذا اغتتم الأمير فرصة السلام المبرم فواصل تنظيم وتقوية دولته إداريا بالاستعانة أكثر على أناس منهم من عمل في الإدارة العثمانية المنهارة . ومنهم من كانوا من الأجواد والفرسان المرموقين ، ومنهم

من كانوا من خيرة رجال العلم والتصوف. كما تصالح مع بعض القبائل رغم علمه بغدر بعضها فأعاد إلى حضيرته بعضها بشكل دائم أو مؤقت سواء تلك المتمردة أو المنافسة وحتى تلك الواقعة تحت رحمة العدو ، وهذا إتقاء لشرهم وإقامة الحجة عليهم أمام كل ما ألقى السمع وهو شهيد . كما واصل في انتهاج نفس السياسة الشرعية (المدارات) مع بعض جيرانه الأقوياء ذوي الميول "الميكيفيلية" في المغرب حيث خص تجارته بالدرجة الأولى فاس وطنجة وجبل طارق وسبتة. ثم جاء التحدي الأعظم بالمقارنة إلى استعدادات العدو الجديدة الرامية إلى انتهاج أسلوب التدجين والتهجير والإبادة الجماعية بصفة شبيهة شاملة على كل الجبهات (مثل مذبحه غار الفرافيش بالظهرة) . ورغم أن قوات الأمير في عام 1840 كانت قد بلغت ثمانين ألف مجاهد إلا أن في معظمها احتياطية يعوزها التدريب والانضباط والتسلح ، أي ينقصها "الضبط والربط" بالتعبير العسكري الحديث .⁽³⁰⁾ هذا في حين كانت قوات "فاليه" تصل إلى ستين ألف جندي تقريبا من مختلف الوحدات وقد وصلت في عهد "بوجو" إلى مائة ألف جندي يتفوقون على جيش الأمير من حيث العدد والعدة والخبرة العسكرية . وأمام هذه الظروف الفنية والعسكرية والاقتصادية غير المتكافئة إكتفى الأمير بحرب العصابات نتيجة انحصاره عددا وعدة ومؤونة وسندا . فالأقاليم الثمانية التي أدارها ونظم شؤونها بمقتضى حكومته المركزية تأثرت بدرجات متفاوتة في الخطورة . فقد شرع خلفاؤه ينتقلون نتيجة الضغوطات العسكرية الكبيرة والمستمرة إلى الداخل، أي إلى خارج المدن . كما أن عملية تجريد الأمير من عاصمته المركزية دفعته إلى استحداث أساليب تكتيكية استوحاها من علم الأعداد الباطني (la numérologie) إن صح هذا التعبير وقد تمثلت في عاصمة متنقلة تضم مختلف الأنظمة الإدارية والخدماتية (مدينة متنقلة) في شكل خيم مرتبة في دوائر مركزية (Des cercles concentriques) تسمى الزمالة . لا ريب أن هذا التنظيم الجغرافي السياسي و الفني الجديد ساهم في تقليص الخسائر وتحمل الضربات. لكن تراكم المشاكل الداخلية وتكالب الكفار والمنافقين عليه من كل صوب وحذب خاصة ما بين 1845-1847 جعلت الأمير يعيش شبه عزلة فلجأ إلى المغرب خلال يوليو 1846 لتضميد جراحه المعنوية ، وتنظيم صفوف أتباعه أو لنقل ما تبقى من أنصاره . وكانت الدائرة التي تركها وهي ما بقي له من نظام الزمالة تحت قيادة خليفته المخلص مصطفى بن التهامي بدل الخليفة محمد البوحميدي منذ أبريل 1846 تحتضر نتيجة نقص ملحوظ في المؤن والأمن والرجال الأمر الذي ساهم في بروز اضطرابات داخلية خطيرة مثل تمرد بعض القبائل كقبيلتي هاشم وبني عامر على خليفته محمد بن التهامي مختارة التوجه (الفرار) إلى المغرب الأقصى و الاستيطان في مدينة فاس . وهكذا راح خلفاؤه يضعون حدا لثوراتهم واحدا تلو الآخر نتيجة "ردة" بعض القبائل وخيانة البعض الآخر من زعماء وقيادة ثورات مضادة خدمت الكفار والمنافقين في المكان وفي الزمان وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ..ورغم عدم تسليم الأمير بالأمر الواقع وتكثيف علاقاته الدبلوماسية في الداخل والخارج كمراسلته لبعض العلماء والخلفاء العثمانيين والأمراء المغاربة وسفراء دول أوربية كإسبانيا وإنكلترا وحتى فرنسا العدو من أجل إبرام هدنة يستغلها لإعادة بعث دولته وأنظمتها وذلك بالاستعانة بمن لازوا على الجهاد مرابطين كحل أول وأخير . لكن ضعف الناصر وخيانة الصديق وتذبذب الرفيق ووعرة الطريق أكثر من أي وقت مضى لم تترك للأمير إلا خياران لا ثالث لهما : الاستسلام بشروط أو الهروب مع قلة من خلص أنصاره ومحبيه والاختفاء عن الوري تاركا وراءه الدائرة الوحيدة المتبقية بمن فيها من أزواجه وقرن عينه تحت رحمة الكفار والمنافقين والله ذر القائل :

وما كنت أرضى من زماني بما ترى
ولكني راض بما حكم الدهر
فإن كانت الأيام خانت عهدنا
فإنني بها راض ولكنها قهر

بعد الصلاة والدعاء والاستخارة في الخلوة ، جمع الأمير "المخدول" مجلسه الشوري وعرض عليه الخيارين فاختار معظم أعضائه الاستسلام "بشروط" رغم أن بعضهم نصحه بالهرب والاختفاء ومن ثم مواصلة الجهاد . لكن الأمير بحكم تجربته الميدانية وفراسته تجرع "السم " الأول صابرا ومحتسبا . وهكذا أرسل في الواحد والعشرون من ديسمبر عام 1847 رسالة خطية إلى الجنرال "لامورسيير" المتولي على المنطقة طالبا منه الأمان له ولجيشه والسماح له بمغادرة الجزائر إلى الإسكندرية أو عكا . فلبى الجنرال الفرنسي متعهدا باسم الحكومة الفرنسية تنفيذ آخر وصيته. (31) كما راسل في الوقت ذاته الدوق دومال (le Duc D'AUMALE) ابن لويس فليب (Louis-Philippe) ملك فرنسا يذكره فيها بإيفاء شروط "سلام الشجعان" الذي أبرمه مع الجنرال لامورسيير (LAMORICIERE) و حاكم الجزائر الجديد ابن حاكم الإمبراطورية لويس فليب المدلل. نقل الأمير و عائلته ومن أثر مرافقته من أصحابه المنتجبين على ظهر سفينة فرنسية لكن هذه المرة ليس إلى الإسكندرية (L'Alexandrie) أو إلى عكة (Saint-jean D'Acree) كما أراد الأمير و إنما إلى فرنسا ليملك فيها و أهله و أصحابه تحت الإقامة الجبرية انتهت به في شهر أفريل عام 1848 الى قصر دو بو (Château de Pau) و منه إلى قصر أمبواز (Château D'Amboise) في شهر نوفمبر تحت الرقابة المشددة أكثر فأكثر. هذه الوضعية غير الإنسانية أثارت حفيظة العديد من الحكومات في أوروبا و أمريكا فراسلت فرنسا منددة بسلوكها غير الحضاري تجاه هذه الشخصية العالمية المحترمة. في الواقع لقد تجاوزت محنته أكثر من خمس سنوات قضاها الأمير و عائلته بين الترغيب و التهيب حتى 16 أكتوبر من عام 1852 حينما تولى لويس نابليون بونابرت (Louis- Napoléon Bonaparte) عرش الإمبراطورية الفرنسية. في الحقيقة ورغم تلك الأجواء الضاغطة لم يتوان الأمير عبد القادر عن مواصلة جهاده الفكري و الإنساني في المكان و في الزمان. و ناهيك فقد استدعا هذا الإمبراطور الفرنسي الجديد فأكرمه وأنزله منزلة الأمراء و القادة العظام. أصبح الأمير عبد القادر الجزائري قبلة للعديد من العلماء و الأمراء و السفراء و رجال الدولة من داخل فرنسا و خارجها فوام الحال من المحال. لقد أعجبوا بفضائله و روحانيته و حنكته السياسية و العسكرية و موسوعيته العلمية و المعرفية و العرفانية وزهده الشرعي. سمحت له الإدارة الفرنسية بحرية التنقل بعدما "عاهدها" على عدم مواصلة الجهاد العسكري ضد مصالحها. استأنف الأمير رحلته العلمية و الثقافية في ربوع الشرق فزار اسطنبول وفيها التقى برجال الدولة العثمانية كالسلطان عبد المجيد وبعض سفراء الدول الأوروبية والأمريكية فتعززت مكانته عندهم كرجل حوار و تحرر من الطراز الأول. و من اسطنبول شد الرحال إلى بلاد الشام مختارا المقام بدمشق عام 1856 ميلادي فقد كان في انتظاره خليفته محمد بن سالم و من هاجر معه من اتباع و مريدي الامير. وما إن حل الأمير عبد القادر الجزائري بهذه المدينة التاريخية العريقة حتى توافدت عليه جموع الانصار من العلماء و الوجهاء و الساسة إعجابا ببطولاته و شخصيته الفذة فقد ذاع صيته في مختلف أرجاء العالم العربي والإسلامي والقارة الأوروبية والأمريكية. و لم يمر وقت يسير حتى شهدوا له بالكفاءة الدينية والأدبية والفلسفية باعتباره أحد أبرز رواد "النهضة" والتصوف المعتدل. راح الأمير يواصل نشاطه التحقيقي والتعليمي والاجتماعي. فزاوالتعليم في كل من المدرسة الحقيقية ثم الأشرفية لينتهي به المطاف إلى المسجد الأموي. كان الأمير صارما في تنظيم وقته بشهادة طلبته ومريديه فقد وزعه يوميا بين التدريس والمباحثة المتحررة والمطالعة المكتبية حتى غروب الشمس ليتفرغ بعدها لشؤون عائلته مواصلا قراءة أوراده ومناجاته الخلوية ليلا.

لعل من أبرز المواقف الإنسانية التي سجلها له التاريخ في هذه المدينة العريقة هو مساهمته الحيوية في إخماد فتنة طائفية نشبت بين الدروز والمسيحيين الموارنة انطلقت شرارتها من لبنان لتجتاح عام

1860 مدينة دمشق وضواحيها. لقد كانت بإيعاز من بعض الدوائر الغربية تحت عنوان "فرق تسد" وكان الأمير فيها كابن اللبون لا ظهرا فيركب ولا ضراعا فيحلب. وناهيك فقد اجتهد الأمير عبد القادر الجزائري ماديا ومعنويا في إخماد جدوتها بأن فتح ضيعته للاجئين المذعورين من المسيحيين (أهل الكتاب) في دمشق إيمانا منه بالأخوة الدينية العادلة. ويذهب العديد من المؤرخين العرب والأعاجم إلى أن الأمير تمكن بفضل الله وعونه من إنقاذ أكثر من 12 ألف مسيحي وهذا ما زاد من شهرته في بلاد العرب والمسلمين والعجم خاصة عند الملوك و السلاطين ورجال الدين كعلم من أعلام الحوار والتحرر تحت ظلال العدل والإحسان الوارفة. وهكذا استأنف الأمير رسالته الثقافية و الحضارية على أكثر من صعيد حتى وافته المنية بدمشق في منتصف ليلة 19 رجب 1300 هجرية الموافق ل 23 مايو 1883 عن عمر ناهز 76 عام. وقد شيع جنازته علماء وسفراء ورجال دولة بارزون. دفن الأمير عبد القادر الجزائري بجوار الشيخ القطب محي الدين ابن عربي بالصالحية بدمشق عملا بوصيته تاركا ورائه تسعة أولاد وبننتين من زوجاته الثلاث. وبعد استقلال الجزائر نقل الرئيس الراحل هواري بومدين جثمانه الشريف إلى أرض الوطن عام 1965 ودفن بمقبرة العالية (32).

أما أولاده فكانوا خير خلف لخير سلف. لقد منحتهم الإمبراطورية العثمانية لقب "باشاوات" اعترافا لهم ببسالتهن الميدانية في مواصلة الجهاد السياسي والعسكري. فهذان ابناه محمد ومحي الدين قد رقيا إلى رتبة لواء في الجيش العثماني. لكن العديد من المؤرخين يذهبون إلى أن عبد الملك ابن الأمير عبد القادر يعتبر أشهر مقاومي الاحتلال الفرنسي في المغرب بعد أبيه فقد انتصر على العديد من فرقها في بلاد المغرب فرأت فيه فرنسا عدوها الأول حتى سقط شهيدا وهو يقود كتيبة من المجاهدين في منطقة تيطوان عام 1924. أما في الجزائر وتحديدا بعد الحرب العالمية الأولى فلا زال مؤرخو الحركات السياسية الوطنية يعتبرون الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر من أبرز رواد الحركة الوطنية الذين ظلوا يناضلون في الجزائر حتى تم طردهم إلى الخارج عام 1923. لقد خرجت مدرسته الفكرية والسياسية رغم أساليب الترغيب والترهيب الكولونيالية نخبة من الساسة والمثقفين لعبوا دورا حيويا في توعية الجزائريين والدفاع عن حقوقهم المشروعة باللسان وبالقلم. هذه الحقوق التي تبلورت - بصفة مباشرة أو غير مباشرة- في اندلاع ثورة شعبية مسلحة مع بداية شهر نوفمبر المبارك من عام 1954 واستمرت لأكثر من سبع سنوات تمكن المجاهدون المؤمنون بعدالة قضيتهم من استرجاع كرامة بلادهم المغتصبة ومقدساتها و ثرواتها المنهوبة في المكان وفي الزمان {من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه و منهم من ينتظر و ما بدلوا تبديلا} .

الهوامش :

- 1- سعد الله ، أبو القاسم ، الحركة الوطنية الجزائرية أبو القاسم الحركة الوطنية الجزائرية ، الجزء الأول ، القسم الأول ، المؤسسة الوطنية للكتاب 1992 ، ص 109
- 2- للاستزادة حول مقامات الصوفية ، راجع : الرجا حسين ، التصوف في البداية ... والتطرف ... في النهاية، مؤسسة الفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، 2003 ص ص 71-89 .
- 3- راجع مصدر السيادة في الإسلام : الخالدي محمود ، قواعد نظام الحكم في الإسلام ، مؤسسة الإسراء ، الطبعة الأولى (مزيدة ومنقحة) داخل الجزائر ، 1991، ص ص 58-93
- 4- للاستزادة حول هذا الموضوع راجع: العربي إسماعيل ، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ، الجزائر ، 1982 ، ص 37-38 . وأنظر أيضا سعد الله أبو القاسم ، المرجع نفسه ، ص 173 .
- 5- العربي إسماعيل، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، الجزائر، 1982، ص 37.
- 6- لقد قام المتصوفة من خلال الزوايا الطرقية بمحاولة إعادة التوازن الاجتماعي والاقتصادي وحتى السياسي في العديد من الحالات وعلى أكثر من صعيد . فكان لها حضور بارز رغم انحراف بعضها عن الشرع تارة والبعث الآخر عن الجهاد ضد المحتلين خوفا وطمعا .. راجع سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن 12 إلى القرن 16 الميلادي ، المرجع نفسه ، ص ص 263-272 . وأنظر بويريك رحال " الزوايا بين الكتاب والسيوف " ، مجلة أمل ، العدد 22-23 ، دار البيضاء ، 2001 . وانظر أيضا: بلير محاولة في تاريخ الزوايا والطرقية في المغرب ، ترجمة حسن فقادي ، مجلة الأمل ، العدد 19-20 الدار البيضاء ، 2000 .
- 7- ديوان الإمام الشافعي ، جمعه وحققه وشرحه أميل بديع يعقوب ، دار الكتاب العربي ، الطبعة الرابعة ، 1998 ، بيروت ، ص 23 (الحث على الترحال) وهو من البحر البسيط
- 8- 18-19- ابن منظور أبي الفضل جمال الدين ، لسان العرب المحيط ، الجزء الأول ، دار الجليل / دار لسان العرب ، بيروت ، 1988 ، كلمة بيعة.
- 9- العسقلاني ، فتح الباري بشرح البخاري ، الجزء الأول ، شركة مكتبة ومطبعة الياباني الحلبي وأولاده بمصر ، 1959 ص 71 .
- 10- ابن منظور، المصدر نفسه ، المجلد الثاني ، ص 914 .
- 11- القلقشندي ، أحمد بن علي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، الجزء التاسع ، المؤسسة المصرية العامة ، القاهرة ، ب.ت. ص 348 . وللإستزادة حول موضوع البيعة راجع ، الخالدي محمود ، المرجع نفسه ، ص ص 97-140 .
- 12- ابن العربي ، القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله المعارفي ، أحكام القرآن ، تحقيق على محمد البجاوي ، الجزء الأول ، مطبعة عيسى الياباني وشركاه ، الطبعة الثانية ، 1968 ، ص 298 .
- 13- الجصاص ، أبو بكر أحمد بن علي الرازي ، أحكام القرآن ، المطبعة البهية ، الطبعة الثانية ، 1347 هـ ، ص 1655 .
- 14- سورة التوبة ، الآية 111
- 15- سورة الفتح آية 18
- 16- سورة الفتح آية 100
- 17- العسقلاني ابن حجر ، المصدر نفسه ، كتاب الفتن ، الجزء السادس عشر ، ص 113 .
- للإستزادة حول موضوع البيعة والشورى ، راجع : الخالدي محمود ، المرجع نفسه ، ص ص 97-213 .
- 18- ملاحظة : هناك من الباحثين من يفرق بين مدلول كلمة "الشورى" ومدلول كلمة "المشورة" فالأول يفيد أخذ الرأي مطلقا ، أي ما كان من ملزما للأمير أو الخليفة أو رئيس الدولة وما لا يكون ملزما وسواء الذي يربح فيه قوة الدليل ، الأمور التشريعية ، أو ما يرجح فيه جانب الصواب كالأمور الفنية والفكرية لذلك جاءت الكلمة بدلالة العموم والشمول . أما المشورة فقد وردت في روايات تاريخية بما يفيد أخذ الرأي الملزم للملك أو الخليفة أو رئيس الدولة فقط ، فالمشورة بهذا المعنى أخص من الشورى وأنها أخذ الرأي الملزم فقط ، للاستزادة حول هذا الموضوع ، راجع الخالدي محمود ، المرجع نفسه ، ص ص 173-176 .
- 19- للاستزادة راجع : سعد الله أبو القاسم ، المرجع نفسه ، ص ص 211-212.
- 20- سورة المائدة آية 48.
- 21- يذكر المؤرخون أنه قبل التنظيم الجديد الذي باشره الأمير بعد معاهدة التافنة عام 1837 كان قد عين الحاج محي الدين بن مبارك على مليانة، أخو الأمير مصطفى بن محي الدين على المدينة ، الحاج السعدي على متيجة ويسر وعمرأوة وحمزة وكل هؤلاء الخلفاء كانوا ينتمون إلى عائلات معروفة بالعلم والتدين والنفوذ .
- 22- راجع : سعد الله أبو القاسم ، المرجع نفسه ، ص ص 212-213 (بقليل من التصرف).
- 23- راجع سعد الله أبو القاسم ، المرجع نفسه ، ص 213-214
- 24- للاستزادة حول التنظيم الإداري و العسكري ، راجع العربي إسماعيل ، المرجع نفسه ، ص ص 217-229 .
- 25- سعد الله أبو القاسم ، المرجع نفسه ، ص 214 .
- 26- ديوان الإمام الشافعي، المرجع نفسه، ص 98 (الهوى) وهو من البحر الطويل .
- 27- للاستزادة حول هذا الموضوع راجع: العربي إسماعيل، المرجع نفسه، ص ص 131-162.
- 28- للاستزادة حول هذا الموضوع ، راجع : السعيد ، محمد عاطف ، الشخصية العسكرية ، دار المعرفة ، 1962 ، ص ص 129-147 .

29- للاستزادة حول خلفيات "إستسلام الأمير" راجع سعد الله أبو القاسم ، المرجع نفسه ، ص ص 262-273 ، العربي ، إسماعيل ، المرجع نفسه ، ص ص 287-320.
راجع أيضا باللغة الفرنسية الكتاب القيم بعنوان :

(30)(31)-Boutaleb Abdelkader , l'Emir Abd-El-kader et la formation de la nation algerienne (de l'Emir Abd-El-kader à la guerre de libération) , edition dahlab , alger , 1990 , pp 167 -190 et pp 195-201 .

ملاحظة: البيتين هما للإمام الشافعي، المرجع نفسه (الرضا بحكم الدهر) من البحر الطويل ص 63.
(32)- للاستزادة حول مدى وطنية وقومية الأمير، راجع سعد الله أبو القاسم، المرجع نفسه، ص ص 273-279. وللإستزادة حول مفهوم الوطنية و الأمة راجع: بن نعمان، أحمد، هل نحن أمة ؟ ، دار الأمة، الطبعة الأولى، 1997، الجزائر ، ص ص 9-32 .
وللإستزادة حول مآثر ومناقب الأمير عبد القادر خارج وطنه الأصلي راجع :

Boutaleb Abdelkader , Op. , Cit . , PP 247-280.